المرجعية ودورها القيادي في السلوكيات الاخلاقية التربوية (المرجع الشيرازي نموذجا)

أ.م.د. هدى محمد سلمان

جامعة بغداد – مركز البحوث التربوية والنفسية

المبحث الأول:

إنّ تعليمَ القيم الفاضلة، والتي هي أحكام وقواعد وأعراف ربانيّة المصدر أصلا مُتناسِقة وواقعيّة تُوافِق طبيعة الإنسان، بل واقع الكون والحياة شاملة، تتوجّه إلى تنمية الفرد في عقله وبَدَنه وروحه ونفسيّته، والتربية فيها تكون بالتدرج والاستمرار والثبات، والتدرُج يكون حسَب المرحلة العمريّة وحسَب تقبُل تلك التربية، والرُجوع إلى المرجعيّة الدينيّة للاهتمام بالتربية القيمية أمرٌ حضَتْ عليه المرجعيّة الدينيّة كلها، وحتى السياسية والقانونية والبيداغوجية عالميًا؛ ففي القرآن الكريم ذكَر الله تعالى في مُحكَم كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].المرجعية الدينية الامتداد الحقيقي اللازم للإمامة، التي تشكّل بدورها الامتداد الطبيعي للنبوّة في أبعادها المختلفة، وخاصّة في بُعديها العقائدي والسياسي، وقد رسم هذا الامتداد للمرجعية الطريقة التي تنتهجها وتسلكها للتعامل مع جميع الظروف والأوضاع، بما فيها الأوضاع والظروف السياسية، وحسب الشروط والخطوط التي وضعها أهل بيت عليهم السلام، فقد مرَّ أهلُ البيت عليهم السلام بمراحل وأدوار ذات ظروف وعوامل مختلفة، جعلتهم يتصرّفون مع تلك الظروف بما يتلاءم مع شروط كلّ مرحلة ودور. وبما أنّ المرجعية الدينية هي الامتداد

الطبيعي للإمامة؛ فإن عملها يجب أن يكون في ظل ما قام به أئمة أهل البيت عليهم السلام من أدوار ومواقف مختلفة.

لقد تقلدت المرجعية الدينية وظائف وواجبات عديدة جعلتها تحمل أمانة الرسالة المحمدية، ومارست الأدوار والمواقف والمراحل ضد حركة الانحراف والتدهور مثلما مارسها أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وإن حركة علماء الدين والمراجع على المستويين الفكري والميداني تهدف إلى الهدف ذاته، فهم يسعون جاهدين إلى الحفاظ على حياة الناس أولا (القيم العظمى)، فهو هدف كل المصلحين، وأول أولوياتهم على اختلاف توجهاتهم، وإذا كان الهدف والغاية من كل دين أو نظرية إنسانية هي حياة الإنسان، فمعنى ذلك أن كل ما يوفر للإنسان والإنسانية السلام والحياة الحرة الكريمة، هو هدف العلماء والفلاسفة والأديان والأفكار. أن دورها يعني الإشراف على شؤون المؤمنين الروحية والعبادية والاجتماعية، وهي تكليف وليس تشريف، وهي قبل كل شيء مقام ديني اجتماعي وليست مركزا سياسيا؛ وأكدت المرجعية على اهميه النظرية الاسلامية،: (في النظرية الاسلامية واحاديث اهل البيت (عليهم السلام) نجد للاخلاق دورا مهما جدا، وتمثل القاعدة الثانية من حيث الاهمية بعد العقيدة بالنسبة إلى البناء الاجتماعي والى الحركة الاجتماعية) مقسما هذا الركن إلى اربعة اقسام:

الاول: الاخلاق ذات العلاقة بالسلوك الشخصي والسيرة الذاتية للافراد.

الثاني: الاخلاق الاجتماعية وهي: الاخلاق ذات الارتباط بالناس، وكيفية التعامل معهم ومداراتهم، وهو قسم موجود في بحوث وكتب الاخلاق.

الثالث: الاخلاق السياسية: وهي الاخلاق التي لها علاقة بالعمل السياسي والاجتماعي وادارة عملية التغيير، والمواجهة مع قوى الظلم والاستكبار والفساد.

الرابع: اخلاق الصفوة، التي لابد أن تتصف وتتميز بها عندما يتم اعدادها.

نحن من شيئين الروح والبدن ، وإذا كنا نعلم طريقنا إلى غذاء أبداننا فهل نتعلم طريقنا إلى غذاء أرواحنا الأهم أيضا ؟ فما هو هذا الغذاء الأهم ؟

انه الأخلاق الحسنة ، والتي لا يختلف اثنان في حاجة الإنسان إليها ، حتى ذلك المنسلخ عنها تجده يغضب عليك إن صارحته بحاله ، وربما طالبك بها وهو يعلم نفسه انسلاخها عنها !

فهذا أبسط دليل على حاجة الإنسان الملحة والفطرية إلى الأخلاق الحسنة ، وأقوى دليل على إجماع الفطرة البشرية نحو مطلوبية الأخلاق الحسنة وخلوديتها مع الدين الحق .

قال اللّه تعالى : ﷻ (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة اللّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وترقى درجة الحاجة إلى الأخلاق الدينية في عصرنا وتتأكد رغم التقدم العلمي والصناعي الذي بهما سخر الإنسان شتى موارد الطبيعة فإنه من دون أخلاق تحدد له طريقة الاستفادة من ذلك سوف يهلك نفسه ويدمر غيره ، وهل تبقى للحياة بعدئذ معانيها الرغيدة ، أو هل تعلو للعدالة راية ؟

فإذا كانت الأخلاق حاجة ملحة وفطرة ثابتة ، فما هو الذي نفتقر إليه في سبيل العلاج والإنقاذ ؟ نفتقر إلى هداة رسموا لنا جمالية الأخلاق الجذابة إلى الخير كله سواء بكلماتهم الوضاءة أو سيرتهم المضيئة ليكونوا القدوات الصالحة للتأسي ، وهؤلاء الذين بهذا المستوى الرفيع والذين يسدون فقرنا الأخلاقي ويعيدون إلينا توازناتنا الروحية هم النبي وأهل بيته (عليهم السلام) وكل من أخذ من رياضهم الزاهر إشراقات أخلاقية رائعة ، قد جاء ذكرها في كتب التاريخ والحديث والأخلاق متناثرا

المبحث الثاني :

مفهوم الاخلاق التربوية في فكر المرجع الشيرازي:

الاخلاق لغة:- هي السجية والطبع والدين، وهي صورة الانسان الباطنية، اما صورة الانسان الظاهرة فهي الخلق، لذلك كان من دعاء النبي – صلى الله عليه واله وسلم: (واهدني لاحسن الاخلاق، لا يهدي لا حسنها الا انت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها الا انت)، ويوصف المرء بانه حسن الظاهر والباطن اذا كان حسن الخلق والخلق.

الاخلاق اصطلاحا:- عبارة عن هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الافعال بسهولة ويسر ومن غير حاجة الى فكر ولا روية، وهذه الهيئة اما ان تصدر عنها افعال محمودة، واما ان تصدر عنها افعال مذمومة، فان كانت الاولى، كان الخلق حسنا، وان كانت الثانية كان الخلق سيئا.

اهمية الاخلاق ومكانتها في الاسلام:- يمكن تبيين اهمية الاخلاق في الاسلام من عدة امور منها:

اولا: الدعوة للأخلاق: من خلال ما جاء به النبي – صلى الله عليه واله وسلم حيث قال: (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)

ثانيا:- تعظيم الاسلام لحسن الخلق: حيث قال صلى الله عليه واله وسلم: (ان احبكم الي، واقربكم مني في الاخرة مجلسا، احسنكم اخلاقا، وان ابغضكم الي وابعدكم مني في الاخرة اسوؤكم اخلاقا، الثرثارون والمتفيقهون والمتشدقون)

ثالثا:- انها اساس بقاء الامم: قول الشاعر

واذا اصيب القوم في اخلاقهم.....فأقم عليهم ماتما وعويلا

رابعا: انها من اسباب المودة، وانهاء العداوة: كقوله تعالى: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم)

خامسا:- الخلق افضل الجمالين: الجمال جمالان حسي يتمثل في الشكل والهيئة والزينة والمركب والجاه والمنصب، وجمال معنوي، يتمثل في النفس والسلوك والذكاء والفطنة والعلم والادب، كما قال الشاعر:-

ليس الجمال بأثواب تزيننا.....ان الجمال جمال العلم والادب

رمزية الاخلاق وبناء المجتمع:- وفي الحديث عن الاخلاق كقيمة انسانية في الحياة ومكانتها من الرسالة الالهية، لابد من التطرق عن ما يفعله الانسان، وما يتعود عليه من سلوك يأتي على اثر بنيانه التربوي، وصياغته النفسية.

وقد اكد ذلك سماحة اية اللّه العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله) بقوله: الاخلاق تبدو لنا مفردة مجردة، تعتمد المعنى قبل الفعل، ولكنها في واقع الحال، تؤثر على الواقع المادي، كما تؤثر فيه العلوم، لهذا فان اكتساب الاخلاق والسعي الى درجة الاكتمال في هذا الجانب اصعب بكثير من اكتساب وفهم واتقان احد العلوم، والسبب يكمن في ان الاخلاق تدخل في بناء النفس، فيما تسهم العلوم في بناء عقل الانسان، والفارق بين بناء النفس وبناء العقل كبير من حيث الجهد المبذول في هذا المجال، ومن بداهة القول ان المجتمع اكثر حاجة للإنسان الخلوق المتزن، الانساني في افكاره وسلوكه، من الانسان الذي يتقن العلوم لكنه لايتقن السلوك الانساني.

التزام الفضائل الاخلاقية والعناية بها:-

في البدء يجب الاهتمام بتغيير النفس واصلاحها ومن اجل الدخول في المرحلة العملية للحياة وخصوصا ونحن معرضون لسيل من المفاسد اثرت فينا بطريقة او بأخرى، فهناك مجتمع فاسد، وتضليل اعلامي مركز، واحقاد، وطائفيات، وانانيات، ونحن ينبغي علينا ان نتجاوز هذه المفاسد بكل قوة، ولكي نربي انفسنا على اساس

الفضيلة والتقوى، والمرحلة الاولى لسلوك هذا الخط، هي الابتداء والمبادرة الى التوبة لله عز وجل، وذكره بشكل دائم، والخشوع له، كما يقول سبحانه:

(انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) والملاحظ استعمال صيغة الحصر في هذه الآية بكلمة (انما) دلالة على عظمة المؤمنين الذين تخشع قلوبهم بمجرد سماع آيات القران، فيؤنبون انفسهم.

من هذه الارضية المتماسكة والصلبة يمكن للمجتمع الاسلامي الفخر والاعتزاز وذلك عندما يكون كالجسد الواحد كما تعبر عن ذلك الآية الكريمة خير تعبير: (انما المؤمنون في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد)، هذا الجسد الواحد والتلاحم بالقيم الاخلاقية هو الذي يصنع التاريخ ويضمن المستقبل، وان الفرق بين الامة القوية والامة الضعيفة لا يكمن في المظهر، بل في العمق والجوهر، فالصفات المثلى التي تتحلى بها الامة المتحدية القوية تختلف عن تلك التي تتميز بها الامة الضعيفة، وبذلك نرى ما اكده اية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله) بقوله: المستوى الذي يبلغه الاخلاقي يؤثر في اداء دوره في المجتمع، فقوله وفعله وسيرته وتاريخه يشجع الناس نحو الفضائل الاخلاقية والاجتناب عن رذائلها اذا كان هو من اهل الفضيلة، ولكن ان كان عكس ذلك فسيدفع الاخرين الى العكس ايضا. لذا لابد ان يدرب الانسان نفسه على انتهاج سبل الفضيلة، وكبح نوازع الرذيلة التي تدفع نحوها النفس طمعا او طلبا لتحقيق مارب لا مشروعة، ومن هنا ينبغي على من يسعى ان يجعل من الفضيلة شعارا في القول والفعل يطبقه في حياته العملية وسواها، والفرق بين الاخلاق والعلوم الاخرى، يكمن في صعوبته قياسا بها، فالرقي في الاخلاق اصعب منه في العلوم الاخرى وحيث ان الاخلاق تعني

تهذيب النفس وبناءها، وقد قال بعض اهل الخبرة من الصعب ان يصبح المرء مجتهدا ولكن من الاصعب ان يصير انسانا.

العناصر الاخلاقية

وبذلك نفهم ان الاخلاق عناصر ذات قيم اخلاقية رفيعة منها:

١- العطاء:- ايتاء المال اما يكون على حب المال نفسه، واما على حب الله سبحانه وتعالى، فاذا قلنا على حبه للمال، فهذا يعني ان هذا الانسان المنفق ممن قال الله فيهم: (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة).

أي ان هذا الانسان مع احتياجه الى هذا المال الا انه يؤثر به الفقير ويعطيه المال رغم حبه واحتياجه اليه، واما على حب الله تعالى، فيعني ان لايكون عن رياء وان لايكون به من واذى، بحيث لاتعرف شماله ما اعطيت يمينه.

والقران يؤكد لنا في كثير من الآيات ضرورة العطاء لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، بمعنى ان الانسان لا يجب ان يعطي فقط لمن يسأله من الاصناف الاخرى من المحتاجين، من هنا علينا الا ننتظر اليتيم فاقد الاب وليس له كفيل لكي يقف على بابنا للسؤال، ولا ننتظر اقاربنا ليأتي احدهم الى بيتنا فيريق ماء وجهه بين ايدينا، وكذلك المسكين الذي يحمل عنوانه معه، فالمسكين يعني من اسكنه الفقر فهو يجلس على التراب، وابن السبيل لا يسأل، فهو شخص عزيز في بلده يخرج ويأتي الى بلدك فينقطع به السبيل فيصبح لايملك شيئا (المهجرين من ديارهم خير سبيل على ذلك) فاذا جاءنا احد يسأل فلا يجب علينا ان نسأله هل انت يتيم حقا، هل انت مسكين او ابن السبيل، لان السائل الذي اراق ماء وجهه لنا يجب ان تعطيه، فهذه هي صفات المؤمن الحقيقي.

وعلى ضوء ذلك يقول اية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله): هل رأى العالم او قرأ او سمع نظاما اقتصاديا يستطيع ان يقتلع جذور الفقر عن الناس حتى يكون من بواعث العجب والدهشة رؤية فقير واحد في طول البلد الاسلامي وعرضها، ولو كان ذلك مسيحيا غير مسلم؟ وهل استطاع العالم المعاصر، والتجارب الاقتصادية الكثيرة من وضع نظام اقتصادي كهذا؟ والجواب على ذلك كله: النفي طبعا، فاليوم وقد بلغت الحضارات قمتها، والانظمة الاقتصادية ذروتها، لاتكاد تجد بلدا واحدا الا والفقر قد نشر اجنحته السوداء، والفقراء ملأوا الارض، والجوع والحرمان شملا الشرق والغرب والجنوب والشمال لذلك نلاحظ ان اغنى البلدان في العالم تنطوي على الفقر، ويوجد فيها فقراء، والسبب هو التطبيق الاقتصادي الخاطئ، ووضع الفوارق الطبقية بين شرائح المجتمع الواحد، اما الاسلام فهو يرفض الطبقية، ويدعو الى العطاء والمساواة في الفرص وغيرها.

٢ـ الوفاء بالعهد :ـ ان الامة التي لاتعرف العهد، ولا تعرف اليمين والميثاق، وتجهل كلمة الشرف، هذه الامة تنهار بسهولة، يجب ان تكون لدى الامة ورجالها كلمة وثبات ووفاء بالكلمة والعهد، وهذا هو الذي يجعل الامة متماسكة ثابتة والتي يعتبرها القران من اخلاق وصفات المؤمن حيث جاء في قوله تعالى: (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا).

وفي تاريخنا الكثير من مواقف الشرف والوفاء بالعهد والثبات عند الكلمة منها ان الطاغية الظالم (الحجاج) حكم يوما على شخص بالإعدام، فقال هذا الشخص للحجاج: امهلني سواد هذه الليلة لأذهب لعائلتي فأودعهم ومن ثم اعود، فقال له: او يعقل ان تعود الى الموت برجليك ! قال: نعم اعود، فطلب منه الحجاج ان يأتيه بمن يكفله حتى يعود، فلما نظر الرجل الى المجلس، قال: انا لا اعرف احدا، وهنا قام رجل

وقال: يا امير انا اكفله، فقال له: ان لم يأت قتلتك مكانه، فقال الرجل: لاباس، ووافق الحجاج على كفالته، فذهب المحكوم على ان يأتي في اليوم التالي وفي وقت محدد كالظهر مثلا، ذهب الحجاج في اليوم التالي مع الكافل وجماعة من الناس والسياف الى باب مدينة الكوفة بانتظار عودة ذلك الرجل، ومع مرور الساعات الثقيلة اقترب الوقت من الظهر، واحمرت عينا الحجاج واخذ ينظر الى الكافل وهو يقول: ان ساعتك قد اقتربت وسيقطع رأسك الان، فقال له الرجل: انني مستعد ولكن اتعلم ان ذلك الرجل المحكوم هو رجل شريف ولديه كلمة شرف واخلاق، وبانه ات حتما قبيل اذان الظهر، وما هي الا لحظات واذا بغبرة من بعيد لم تنجل الا وبالرجل المحكوم واقف بكل اطمئنان امام الحجاج قائلا: ها انذا جئتك فانفذ فيَ امرك، فقال له: اوجئت الى الموت بقدميك ياهذا ! فقال له: انا اعطيت كلمة شرف اثبت عندها وافي بعهدي لكي لاينقطع الوفاء بين الناس، واما الكافل فقال: كفلته لشرف كلمته، ولكي لايقال بان الثقة فقدت بين الناس، فعفا الحجاج عنهما معا رغم طغيانه وظلمه.

وان كلمة الشرف هي قيمة الامة واخلاقها فلا ينبغي ان تكون كلماتنا رخيصة زائفة نطلقها بلا دراية والتزام، فمن يعطي كلمة يكون على قدر منها. وعلى ضوء ذلك يرى اية اللّه العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله): الاخلاق عنصر جوهري في بناء الشخصية، ولا ينتمي الى المظاهر القشرية، ولهذا تبقى الاخلاق ناقصة، اذا لم تتحول الى فعل قائم، وشاخص في الميدان الذي يتحرك وينشط فيه الانسان، من هنا تتسم الاخلاق، وقضية تحصيلها، والتميز بها بالتأني، بسبب العمق السحيق الذي يميزها، وهذا القول او الرأي، يدعم اصطفاف الاخلاق الى الجوهر الانساني قبل شكله.

ويسبب صعوبة تحقيق التكامل الاخلاقي في شخصية الانسان، فانه قد يصل الى حالة من اليأس، والذي يقوده الى التراجع عن دوره الانساني في الحياة، فالأخلاق منظومة ترفع الانسان وتسمو بنفسه، الى مافوق الانسان المتعارف عليه في المجتمع، حيث يتنزه الانسان المتسم بالأخلاق، عن الصغائر، والغرائز، والنوازع التي غالبا تحاول ان تحط من قيمة الانسان، كقيمة فكرية، سلوكية، عليا بين الكائنات، التي تتخذ من المعمورة مأوى لها، فسماحته يؤمن و يحث الاخرين على اهمية الغذاء الروحي قبل الجسدي، كون الغذاء الروحي يسمو بالروح الى مراتب عالية، تجعل من صاحبها، او حاملها، نموذجا مشعا على الاخرين، بأخلاقه التي تتمخض عن سلوكيات وافكار، تصنع الفرد والمجتمع النموذجي حيث يقول (دام ظله): علينا بعلم الاخلاق فليست اخلاق الاسلام وادبه كلها مستحبات ومكروهات فقط، بل ان فيها الواجبات والمحرمات ايضا.

وهذا يعني بان الانسان المسلم لكي يمنح احقية الانتماء للإسلام، شكلا وجوهرا، عليه ان يهتم، ويتواصل، ويتعاطى، مع علم الاخلاق، ليس في جانبه الاعتباري، او العلمي فحسب، بل لابد ان يتحول هذا العلم والمحتوى، الى تطبيق علمي شاخص، في ميدان العلاقات الانسانية الواسعة، والمتعددة الجوانب، مع عموم افراد المجتمع، وجماعاته المختلفة، لذلك لاينبغي قط ان ننظر او نتعامل مع الاخلاق، على انها جانب شكلي، او مكمل (فحسب) تتصنعه لوقت محدود، ويقول (دام ظله): اذا حصل الانسان على ملكة حب الخير في كل ابعاده، شعر باللذة، وبدأ يلمس نتيجة اتعابه في مجال الاخلاق والفضائل.

٣- الصبر:- هو من الاسس الاخلاقية التي يقوم عليها الخلق الحسن، فالصبر يحمل على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الاذى والحلم، والاناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة.

ويدعى الانسان دائما بحمل صفة الصبر مادام في رخاء ونعمة، فهو صابر مع وجود الطعام والبيت الواسع والفراش الوفير والامن والصحة، ولكنه من اول مشكلة تراه ينقلب ويجزع، ان الصابرين هم من يصفهم القران الكريم بقوله تعالى (والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس)، ففي الادعاء ترى الكثير من الناس معك، ولكن عندما تحدث المشكلة تراهم قد انهزموا، ويفر كل شخص الى ناحية ويعطي تبريره، بل وحتى لايكلف نفسه ليقول لك الوداع، او يسلم عليك بعد ذلك.

ان الانسان عموما اذا امتحنته عند الشدائد، ترى لديه التقوى، وجوهر التقوى ورأس الايمان ان يكون لدى الانسان الصفات المثلى (الاخلاق) كالصبر والعهد وكلمة الشرف والعطاء... ومجتمعنا الحاضر بحاجة ماسة لهذه الصفات الاخلاقية.

وعندما اتينا على ذكر الصفات الاخلاقية فلا بد من الاشارة الى ما يفسد هذه الصفات ويأتي التشاؤم والنظرة السلبية في المقدمة، ولاننا نضع نظارة سوداء على اعيننا، فاننا لانرى في هذا العالم سوى السواد، ولا نرى في الناس خيرا بل كلهم في شر، فهل رأينا انفسنا في المرآة يوما؟ وهل نعرف انفسنا لنزكيها؟ وهل حاسبنا انفسنا اولا قبل ان نحاسب الاخرين؟ فأننا مثلهم ايضا، نصفنا شيطان ونصفنا ملائكة، ففي ساعة نصبح في حالة من الذكر والبكاء والخشوع....، وفي ساعة اخرى ننجرف مع الشهوات... واننا وجميع البشر هكذا، فلماذا نخادع انفسنا، حين نرى احد غيرنا يخطئ ان نقول بانه قد اصبح شيطانا، فانه بشر يخطئ ويصيب خلال عمره، و نحن مثله ايضا.

الاخلاق تقود العالم اجمع الى مرفأ الامان:- يرى اية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله) في هذا المجال من خلال ما يراه من تهذيب النفوس حاجة ملحة ومطلوبة سواء على مستوى الافراد او الجماعات، ولعل الاخلاق هي الطريق الاصوب والاقرب لتحقيق هذا الهدف، لذلك ليس غريبا ان يقول الرسول الاعظم – صلى الله عليه واله وسلم – في حديث شريف: (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)، وليس غريبا ان يضع الرسول – صلى الله عليه واله وسلم – هذه القيمة الكبرى للأخلاق، ففي القوة الرادعة لأهواء النفس وهي قاعدة الضوابط التي تحكم سلوك الانسان ونواياه تجاه الاخرين، لهذا لابد من ان يتدرب ويتمرن الانسان على ترويض النفس والتحكم بها بأخلاقه الرفيعة، ويقول (دام ظله): ان المرء في أي مجال كان وفي أي بلد وفي أي مرتبة فهو مردد بين الخير والشر، اذ ان في الانسان دافعا الى الخير وهو العقل ودافعا نحو الشر وهي النفس الامارة بالسوء، فاذا كان المرء حسن الخلق فان دافع الخير عنده يغلب دافع الشر وسيكون نصيبه الدنيا والاخرة، بخلاف سيئ الخلق فهو لادنيا له ولا اخرة.

ولعلنا نتفق على ان الاخلاق السامية تمنح الانسان قدرة كبيرة على التسامح ومعاملة الاخر وفقا لقيمته العالية وكرامته الانسانية التي ينبغي على الجميع ان يحافظ عليها، لهذا حين يتحلى الانسان بالأخلاق الحقيقية القادرة على صيانة افعاله ونواياه، فانه سيتميز بالصفات العظيمة التي تجعله اشد ايمانا بحق الاخرين بالحياة الحرة الكريمة الامنة، فحسن الخلق هو ان تكون صادقا في الكلام، صابرا عند المكاره، تلقى الناس دائما ببشر الوجه وطلاقته، وان تحلم عمن يسيئ اليك، والى غير ذلك من محاسن الاخلاق.

ولذا يتطلب الامر ان يرتقي الانسان بنفسه، وان ينحو صعوبة تهذيب الذات وتشذيبها من المساوئ أيا كان نوعها او مصدرها، وطالما كان الصراع بين الانسان ونفسه، فانه صراع ينطوي على صعوبات جمة، وعلى وفق ما تقدم يرى ايضا اية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله): ان الارتقاء في الاخلاق والفضائل اصعب من الاجتهاد في الفقه، وان ثمرته ونتيجته ابعد منالا واعسر حصولا من الفقه، وان رمزية الاخلاق لاتعني ان يتصنع الانسان سلوكه مع الاخرين، بل لابد ان تكون الاخلاق متأصلة في ذاته ونابعة منها، اما التصنع فهو مكشوف ولا يصمد طويلا، حيث ينكشف الوجه الحقيقي للإنسان، بعيدا عن غطاء التصنع، حيث المرء لا يلمس نتيجة سعيه الا عندما يصبح ذا قلب سليم وتصبح الاخلاق والفضائل ملكات لديه، عندها يشعر بلذة الاخلاق والوصول الى مراتبها العالية، وعندها يعرف قيمة ترويض النفس ومخالفة الشهوات.

وعلى وفق ذلك اقول: ان الاخلاق متجذرة عند الانسان بعدة مستويات تارة من خلال تربية الام والاب لطفلهما وما يتأتى من هذه التربية من قيم اخلاقية وغرسها لدى الطفل وصقلها حيث يقع العاتق الاكبر على الام وكما قال الشاعر:-

الام مدرسة ان اعددتها.....اعددت شعبا طيب الاعراق

وتارة اخرى تكون القيم الاخلاقية مغروسة اصلا في ذات الانسان (اللاشعور) وكما نعرف ما يوجد عند الانسان من ثنائية الخير والشر فان طغى الخير على الشر اصبحت القيم الاخلاقية طاغية على الانسان مما يطلق عليه بـ (حسن الخلق) واذا كان العكس من ذلك يطلق عليه بـ (سيئ الخلق)، وبهذا ان الوعي الاخلاقي متجذر في طبيعة الانسان ذاتها، أي الوعي الاخلاقي يوجد في الفطرة والغريزة، ومن ثم فان الانسان يتجه طبيعيا الى قبول الخير ورفض الشر وكما قال الشاعر:

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا.....والشر في الناس لايغنى وان قبروا

المبحث الثالث:

ويتضمن هذا الفصل أسئلة وهي:

١ ـ ما هي الأخلاق الحسنة ؟

٢ ـ وما هي مفرداتها العملية ؟

٣ ـ وكيف نطبقها ؟

٤ ـ وهل يمكن التحلي بها في هذا العصر الذي أفلت عنه القيم الأخلاقية ؟

هذه الأسئلة قد أجاب عليها عمل الحسين (عليه السلام) . لأن الأخلاق الإسلامية التي تجسدت في سلوك الإمام الحسين (عليه السلام) تبينت معانيها ومفرداتها العملية وكيفية تطبيقها أيضا ، حيث كان (عليه السلام) في عصر قد ذهبت الأخلاق والقيم عن الناس ، لإدبارهم عنها ، عودة إلى الجاهلية الأولى ، وفي الظلام يرى الضياء متلألئا جذابا ، وهكذا إنما تبقى علينا مسؤولية التحلي بهذه الأخلاق وفق الاجتهاد المفتوح على حدود اللّه بمفتاح العقل المتخلق بأخلاق اللّه ، ومهما تكون النفسية البشرية معقدة والتي جاءت المستحدثات العصرية لتزيدها عقدة وتعقيدا ، فان الأخلاق العملية عند الحسين (عليه السلام) ليست عقيمة الحلول وعاجزة عن الأخذ بأيدينا إلى العروج نحو القيم المثلى . وذلك لوجود الفطرة النقية في باطن الإنسان وهي من الثوابت التي رسخها خالقها فيه كي تكون المرجع الأول والقاعدة الأساسية الصلبة لتلقي الخير واستلهام الحكمة العملية وانطلاقة الإنسان الأخلاقية في كل عصر مع الاستقامة على مدلولاتها ، إن تلك الفطرة والتي تسمى عند الناس اليوم بالضمير وعند الفلاسفة بالعقل العملي لن تتغير ولن ترضخ لتوجيه صاحبها المخطئ وأنى لها ذلك وقد أراد اللّه لها أن تكون رسوله في باطن الإنسان إلى ساعة موته ، كما رسل اللّه العاملون من حوله ، إنهما رسالتان

متعانقتان متلاحمتان من رسولين متعاونين في داخل الإنسان وخارجه . فكما الرسول الظاهري لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، كذلك الرسول الباطني يتناغم مع تعاليم الوحي ولا يتنافر معها أبدا . ولذا أسس علماء أصول الفقه قولهم بأن (كل ما حكم به الشرع حكم به العقل ، وكل ما حكم به العقل حكم به الشرع) . ومن أدلتهم على ذلك الحديث الوارد عن الإمام الكاظم (عليه السلام) : " إن لله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة (عليهم السلام) وأما الباطنة فالعقول ". ومن وصاياه (عليه السلام) أيضا قوله : " ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله ،فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلا ، وأكملهم عقلا أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة " .

فالعلاقة بين العقل والأخلاق الحسنة علاقة الموجه والموجه . إن العقل هو الذي يدل إلى فهم الأخلاق الحسنة وطريقة الالتزام بها أيضا وتعرية ضده ، أي الجهل الذي يسقط صاحبه في الأخلاق السيئة . قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : " الخلق المحمود من ثمار العقل ، والخلق المذموم من ثمار الجهل " .

وهكذا فتطبيق التعاليم الأخلاقية من خلال قيادة العقل المنفتح على الشرع أمر عملي في عصرنا ، فلا عذر للمتخلف عن القيم الأخلاقية الثابتة والمجربة في سلوك الهداة ، وليس التبرير بظواهر الزمان المتغيرة إلا هروب من المسؤولية الشرعية إلى عبادة الهوى . قال الله تعالى : سلطان (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) . فالسلوك الفردي والالتزامات الاجتماعية والآداب الشخصية فروع تنبثق من أصول القيم الأصيلة الثابتة ، مثل الصدق ، والصبر ، والعفة ، والحكمة ، والرحمة ، والوفاء ، والإخلاص ، والعدل ، من

يتعلم هذه الأصول سهلت عليه الفروع العملية بعون الله تعالى وكان توكله عليه إخلاصه له .الأخلاق أنجح التجارب في الإنقاذ ومثال ذلك هو إقلاع العرب عن الجاهلية والتناحر والتفرقة إلى أوج الحضارة الإنسانية والتعاون والألفة . . دليل لا يدانيه شك بأن الأخلاق الإسلامية التي تجسدت في سلوك النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وأتباعه الأوفياء لازالت قادرة على الانقاذ ما دام الالتزام بها مستمرا ذلك لأن القرآن والمشتركات التي تجمع شتات المسلمين وتمحي أسباب التفرق ، موجود بأيديهم ولم يدخله التحريف ، وهي أقوى منطلقات توحيدية القادرة على احتواء الخلافات الجزئية والأذواق المتباينة والأفكار المتعددة في الأمة الإسلامية الواحدة ، فكيف بإحتواء الخلافات داخل مذاهبها أو إحتوائها في دوائر أصغر منها ، كالتجمعات والعوائل والأفراد فإذا علمنا أن أسباب النزاعات والمشاحنات والانتكاسات تكمن في الأزمة الأخلاقية التي عصفت بالأمة على مختلف أصعدتها فإن علينا أن نعلم يقينا بأن فك هذه الأزمة محصور في ممارسة الأخلاق الإسلامية لا غير . أما قرأت ما قاله الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

هذا ونتساءل : إذا كانت تعددية المذاهب والفرق ظاهرة طبيعية في جميع الأديان والمبادئ فكيف كان يتم التعامل والعلاقة بين المذاهب المختلفة ضمن الدين الواحد ؟ بالطبع ان مستوى وعي الإنسان بالقيم ومدى التزامه بالأخلاق الفاضلة ، هو الذي يحدد طريقة تعامله مع من يخالفه في الدين أو المذهب . . ذلك لأن الإيمان بقيمة الإنسان كإنسان ، وحقه في أن يعيش حرا كريما ، حسبما يشاء ويختار ، هذا الإيمان يفرض على صاحبه احترام إرادة الآخرين والاعتراف بحريتهم في اختيار أديانهم ومذاهبهم ومعتقداتهم . . وللتربية الأخلاقية دورها الفعال والحاسم في تنظيم علاقة الإنسان بالآخرين وخاصة من يختلف معهم . ومؤلم حقا ما يحتفظ به التاريخ

من سجلات دامية لحالات الصراع والاضطهاد المتبادل بين أبناء الدين الواحد عند اختلاف مذاهبهم في فترات انحطاط الوعي وتدني المستوى الأخلاقي . وإذا كانت هناك أعذار تلتمس ، ومبررات تفتعل للصراع والعداء بين أتباع الأديان المختلفة المتناقضة ، فما هي مبررات الصراع بين أبناء الدين الواحد ، مع انتمائهم لعقيدة واحدة تجمعهم وإيمانهم بزعيم روحي واحد ، ومع وجود القواسم المشتركة ومجالات الاتفاق التي هي أوسع وأكبر من مساحة الاختلاف فيما بين مذاهبهم ؟ بالتأكيد لا سبب ولا مبرر ، إلا تفشي الجهل وتدني الأخلاق وتحريك المغرضين المصلحيين من الخارج والداخل . فإلتفاف كل فرد حول المحاور المبدئية والقيم الأخلاقية ، ينتج التفاف الناس حول بعضهم وتماسك وحداتهم المتعددة في مواجهة الأخطار والتحديات ، لذلك خاطب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله) عشيرته : " يا بني عبد المطلب انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر " . وفي رواية أخرى يخاطب بها أمته : " انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم " وقال أيضا : " سوء الخلق شؤم ، وشراركم أسوأكم خلقا " وعن النبي (صلى اللّه عليه وآله) أيضا : " حسن الخلق يثبت المودة " وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : " حسن الخلق رأس كل بر " . وقال سلام اللّه عليه أيضا : " من حسنت خليقته ، طابت عشرته " . وقال الإمام الصادق (عليه السلام) : " إن اللّه تبارك وتعالى خص رسوله بمكارم الأخلاق ، فامتحنوا أنفسكم ، فإن كانت فيكم فاحمدوا اللّه عز وجل وارغبوا إليه في الزيادة منها . فذكرها عشرة : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والحلم ، وحسن الخلق ،والسخاء ، والغيرة ، والشجاعة ، والمروة ".ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) كذلك : " حسن الأخلاق يدر الأرزاق ، ويؤنس الرفاق " ويطالب المسلمين وخاصة شيعته الذين عقدوا الولاء بإمامته ، أن يجعلوا تنافسهم في العمل بالأخلاق التي يرتاح لها ضمير كل إنسان حتى غير المسلمين ، إذ يقول (

عليه السلام) : تنافسوا في الأخلاق الرغيبة ، والأحلام العظيمة ، والأخطار الجليلة ، يعظم لكم الجزاء " . فالجزاء العظيم والثواب الجليل يكمن في هذا التنافس الشريف ، وليس في الوضيع منه ، الذي لا يلتقي مع الأحلام العظيمة والأهداف الكبيرة في الحياة . لقد أتم أهل البيت (عليهم السلام) الحجة على البشرية باتمامهم لمكارم الأخلاق على كافة المستويات وفي كل الحالات ، فلم يبقوا لتبرير الانسلاخ عن القيم الأخلاقية وسيلة إلا وهي مفضوحة ومردودة . أجل ، فلو درسنا الأخلاق الإسلامية ، وملئنا الأجواء بالحث عليها والترغيب في الالتزام بكل مفرداتها ، خاصة ما يتعلق منها بالجوانب الاجتماعية والأبعاد الحضارية ـ التي عبر عنها الإسلام بحقوق الناس ـ لتحولت حالنا إلى أحسن الأحوال ، وأصبح واقعنا يتحرك من الجيد إلى الأجود في كل مجال . ولقد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله) لعلي (عليه السلام) شاخصا له ثلاثة من أهم أعمدة الأخلاق الاجتماعية في الإسلام ، والتي إن تبناها الفرد المسلم ، قام بنيان المجتمع على أسس سليمة في العلاقات بين أفراده ، يقول (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : " يا علي . . ثلاث من مكارم الأخلاق ، تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، تعفو عمن ظلمك " . وعلى أساس هذه الوصايا الذهبية للنبي الأكرم (صلى اللّه عليه وآله) ، قام الإمام علي (عليه السلام) في التعامل مع الذين اختلفوا معه وناوئوه في حقه ومكانته . فلقد كافح الإمام علي (عليه السلام) لترشيد الخلافة من بعد رسول اللّه ـ قدر المستطاع ـ فلم يكن يتردد في إسداء النصح للخلفاء الثلاثة ، وهو في ذات الوقت يذكرهم بأخطائهم المهلكة ويؤكد على حقه في الخلافة كما أوصى به رسول اللّه ، وأحاديث السيرة في ذلك متواترة عن الصحابة من طرق المذاهب الإسلامية كلها . ولم يجانب الإمام (عليه السلام) تلك الأخلاق العظيمة حتى بعد أن انتخبه المسلمون خليفة لهم بالطلب والإلحاح عليه ثم أوقعه أهل الدنيا منهم في حروب داخلية في واقعة جمل والصفين

والنهروان ، ولقد أكد التاريخ أنه (عليه السلام) مع ما كان عليه من مكانة عالية وقوة فائقة لم يتوسل بالمكر والخدع السياسية والقمع الدموي في نفي المعارضة ، بل رقى إلى أعلى درجات الأخلاق حتى أقر بذلك عدوه لاحقا وكيف يكون خارجا عن هذه السمات الأخلاقية الرفيعة من هو ميزان الحق والمجسد للأخلاق الحقة ، الذي كان متميزا عن غيره في كونه أول الناس إسلاما وإيمانا برسول الله ، لم يسجد للأصنام طرفة عين ، ولد في الكعبة بيت الله ، واستشهد في محراب صلاته ، وبينهما أخلص وجوده كله لله ، وهو صاحب الحكمة الحضارية الخالدة المنقذة للإنسانية المعذبة : " لو كنا لا نرجو جنة ، ولا نخشى نارا ، ولا ثوابا ولا عقابا ، لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاح " . حاجتنا إلى الأخلاق هي حاجتنا إلى الحياة !

أو تدري لماذا ؟

لأن الحياة المجردة عن أخلاقها الطيبة كآبة وضياع وحيرة ، وكم أدت هذه الحالة الميتة روحيا إلى الانتحار الجسمي ، أليس لأنه لا فرق بينهما إذا غاب طعم الأخلاق الطيبة عن الحياة ؟ يشترك الإنسان مع البهائم في الأكل والشرب والنوم ولذة الجنس وأحيانا كثيرة في الشكل وأعضاء الجسم والمتطلبات المادية ، ولكنه يفترق عنها في العلم والمعرفة والأخلاق والسلوك الإنساني إذا اكتسبه ، وإلا بقي مشتركا معه في تلك الصفات البهيمية ، وكلما كان الإنسان أكثر عروجا وإقلاعا سماويا في فكره وفعله كلما صار أكثر ملائكيا وسعادة في حياته وبعد مماته ، وهنا هو ميدان سعيه المتواصل ومحك الاختبار له . والعجب كل العجب ، كيف يقبل الإنسان أن يتنفس الهواء ليعيش ولا يقبل أن يتحلى بالأخلاق ليسعد ويتهنأ من عيشه رغدا ؟

وان ما كتبه العلامة السيد مهدي الصدر في الجواب على السؤال المذكور قائلا :

سوء الخلق ، هو انحراف نفساني ، يسبب انقباض الإنسان وغلظته وشراسته ، نقيض حسن الخلق . من الثابت أن لسوء الخلق آثارا سيئة ، ونتائج خطيرة في تشويه المتصف به ، وحط كرامته ، ما يجعله عرضة للمقت والازدراء ، وهدفا للنقد والذم . وربما تفاقمت أعراضه ومضاعفاته ، فيكون حينذاك سببا لمختلف المآسي والأزمات الجسمية والنفسية المادية والروحية . وحسبك في خسة هذا الخلق وسوء آثاره ، أن الله تعالى خاطب سيد رسله ، وخاتم أنبيائه ، وهو المثل الأعلى في جميع الفضائل والمكرمات قائلا : سلطان (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) . من أجل ذلك فقد تساند العقل والنقل على ذمه والتحذير منه ، وإليك طرفا من ذلك : قال النبي (صلى الله عليه وآله) : " عليكم بحسن الخلق ، فان حسن الخلق في الجنة لا محالة ، وإياكم وسوء الخلق ، فان سوء الخلق في النار لا محالة " . وقال الصادق (عليه السلام) : " إن شئت أن تكرم فلن ، وإن شئت أن تهان فاخشن " . وقال الصادق (عليه السلام) : " إن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل " . وقال (عليه السلام) : " من ساء خلقه عذب نفسه " . هذا وكما تمرض الأجساد وتعروها أعراض المرض من شحوب وهزال وضعف ، كذلك تمرض الأخلاق ، وتبدو عليها سمات الاعتلال ومضاعفاته في صور من الهزال الخلقي ، والانهيار النفسي ، على اختلاف في أبعاد المرض ودرجات أعراضه الطارئة على الأجسام والأخلاق . وكما تعالج الأجسام المريضة ، وتسترد صحتها ونشاطها ، كذلك تعالج الأخلاق المريضة وتستأنف اعتدالها واستقامتها ، متفاوتة في ذلك حسب أعراضها ، وطباع ذويها ، كالأجسام سواء بسواء . ولولا إمكان معالجة الأخلاق وتقويمها ، لحبطت جهود الأنبياء في تهذيب الناس ، وتوجيههم وجهة الخير والصلاح ، وغدا البشر من جراء ذلك كالحيوان وأخس قيمة ، وأسوأ حالا منه ، حيث أمكن ترويضه ، وتطوير أخلاقه ، فالفرس الجموح يغدو بالترويض سلس المقاد ، والبهائم الوحشية تعود داجنة أليفة . فكيف

لا يجدي ذلك في تهذيب الانسان ، وتقويم أخلاقه ، وهو أشرف الخلق ، وأسماهم كفاءة وعقلا ؟ ؟ من أجل ذلك فقد تمرض أخلاق الوادع الخلوق ، ويغدو عبوسا شرسا منحرفا عن مثاليته الخلقية ، لحدوث إحدى الأسباب التالية :

١ ـ الوهن والضعف الناجمان عن مرض الانسان واعتلال صحته ، أو طروء أعراض الهرم والشيخوخة عليه ، مما يجعله مرهف الأعصاب عاجزا عن التصبر ، واحتمال مؤون الناس ومداراتهم .

٢ ـ الهموم ، فإنها تذهل اللبيب الخلوق ، وتحرفه عن أخلاقه الكريمة ، وطبعه الوادع.

٣ ـ الفقر ، فانه قد يسبب تجهم الفقير وغلظته ، أنفة من هوان الفقر وألم الحرمان ، أو حزنا على زوال نعمته السالفة ، وفقد غناه .

٤ ـ الغنى ، فكثيرا ما يجمح بصاحبه نحو الزهو والتيه والكبر والطغيان ، كما قال الشاعر : لقد كشف الإثراء عنك خلائقا سلطان من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

٥ ـ المنصب ، فقد يحدث تنمرا في الخلق ، وتطاولا على الناس ، منبعثا عن ضعة النفس وضعفها ، أو لؤم الطبع وخسته .

٦ ـ العزلة والتزمت ، فإنه قد يسبب شعورا بالخيبة والهوان ، مما يجعل المعزول عبوسا متجهما .

وحيث كان سوء الخلق من أسوأ الخصال وأخس الصفات ، فجدير بمن يرغب في تهذيب نفسه ، وتطهير أخلاقه من هذا الخلق الذميم ، أن يتبع النصائح التالية :

١ ـ أن يتذكر مساوئ سوء الخلق وأضراره الفادحة ، وأنه باعث على سخط الله تعالى ،وازدراء الناس ونفرتهم .

٢ ـ أن يستعرض فضائل حسن الخلق ، ومآثره الجليلة ، وما ورد في مدحه ، والحث

عليه ، من آثار أهل البيت (عليهم السلام) .

٣ ـ التريض على ضبط الأعصاب ، وقمع نزوات الخلق السئ وبوادره ، وذلك بالتريث في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، مستهديا بقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) : " أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه " .

وتتحقق هذه الضمانة والمناعة من خلال المرتكزات الأربعة التالية :

١ ـ أن يعرف الإنسان قيمة نفسه ، فإن الوجود إذا غلى عند صاحبه عرف كيف يتصرف مع الغالي وأين يضعه . قال تعالى : سلطان (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)

٢ ـ أن يستأنس عمليا بذكر الله ويلهج لسانه بالتسبيح والاستغفار ويكون واعيا لأبعاد ذلك .

٣ ـ أن يرسل الإنسان نظره إلى الآخرة ، ويراقب ما يقطع عليه طريقه إلى الجنة . قال الله تعالى : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)

٤ ـ أن نصغي إلى أحاديث قادتنا المعصومين (عليهم السلام) حول الأخلاق ، والتطبيقية منها خاصة ، فقد قال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في الحث على ذلك وزرع الحوافز الأخلاقية : " الإسلام حسن الخلق " .

المبحث الثالث :

يتناول هذا الفصل التطبيقات الأخلاقية

١ـ في الاهتمام بأخلاق الشباب وأخبار المجتمع

إن من أهم واجبات الإمام هو رعاية المجتمع الإسلامي عن كثب ، وملاحظة كل صغيرة وكبيرة في الحياة الاجتماعية ، ورصدها ، ومحاولة إصلاحها وإرشادها ،

ودفع المفاسد والأضرار بالأساليب الصالحة ، وبالإمكانات المتوافرة ، دعما للأمة الإسلامية ، وحفظا للمجتمع من الانهيار أو التصدع . وقد ورد عن الإمام الحسين (عليه السلام) حديث مهم يدل على عمق اهتمام الإمام بهذا الأمر الهام : قال جعيد الهمداني : أتيت الحسين بن علي . . . فسألني ، فقال : " أخبرني عن شبابالعرب ؟ " قلت : أصحاب جلاهقات ومجالس إقال (عليه السلام) " فأخبرني عن الموالي ؟ " قلت : آكل ربا ، أو حريص على الدنيا إقال (عليه السلام) : سلطان (إنا للّه وإنا إليه راجعون) سلطان " واللّه ، إنهما للصنفان اللذان كنا نتحدث أن اللّه تبارك وتعالى ينتصر بهما لدينه . يا جعيد همدان : الناس أربعة : فمنهم من خلاق ، وليس له خلق . ومنهم من له خلق ، وليس له خلاق . ومنهم من ليس له خلق ولا خلاق ، فذاك أشر الناس ومنهم من له خلق وخلاق ، فذاك أفضل الناس " .

سلطان الدروس المستفادة هنا :

١ ـ الاهتمام بالأمور الثقافية والتربوية للشباب .

٢ ـ تتبع أخبار المجتمع والتطورات فيه .

٣ ـ ضرورة التشاور في الإصلاحات الاجتماعية .

٤ ـ من الجدير إخبار العالم والمصلح بما يدور في المجتمع .

٢ـ مفاهيم أخلاقية ثلاثة

مفاهيم أخلاقية ثلاثة : " النصيحة " ، " طلب الحق " و " صدق الحديث " امتزجت مع كرامة الإعجاز الإلهي التي خص بها أولياءه لتثبيت مكانتهم في قلوب المؤمنين ، ولإتمام الحجة على الذين لا يفقهون رسالة اللّه في الحياة . فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال : إن الحسين (عليه السلام) إذا أراد أن

ينفذ غلمانه ـ أي عماله ـ في بعض أموره ، قال لهم : " لا تخرجوا يوم كذا وأخرجوا يوم كذا ، فإنكم إن خالفتموني قطع عليكم " . ـ أي هاجمكم قطاع الطريق ـ . فخالفوه مرة وخرجوا فقتلهم اللصوص ، وأخذوا ما معهم ، واتصل الخبر بالحسين (عليه السلام) ، فقال : " لقد حذرتهم فلم يقبلوا مني " . ثم قام من ساعته ودخل على الوالي ، فقال الوالي يا أبا عبد اللّه بلغني قتل غلمانك ، فآجرك اللّه فيهم . فقال الحسين (عليه السلام) : " فإني أدلك على من قتلهم فاشدد يدك بهم " . قال : أو تعرفهم يا ابن رسول اللّه ؟ قال : " نعم كما أعرفك وهذا منهم " ، وأشار بيده إلى رجل واقف بين يدي الوالي . فقال الرجل : ومن أين قصدتني بهذا ؟ ! ومن أين تعرف أني منهم ؟ ! فقال له الحسين (عليه السلام) : " إن أنا صدقتك تصدقني ؟ " فقال الرجل : نعم واللّه لأصدقنك . فقال (عليه السلام) : " خرجت ومعك فلان وفلان " ، وذكرهم كلهم ـ بأسمائهم ـ ، فمنهم أربعة من موالي المدينة والباقون من حبشان (١) المدينة فقال الوالي للرجل : ورب القبر والمنبر لتصدقني أو لأهرأن (٢) لحمك بالسياط . فقال الرجل : واللّه ما كذب الحسين (عليه السلام) وقد صدق ، وكأنه كان معنا ، فجمعهم الوالي جميعا فأقروا جميعا ، فضرب أعناقهم . وهنا ليس للعفو مورد ، لأن القصاص إحياء للحق وحياة للمجتمع ، تنمو به الأخلاق الحميدة ولا يجد معها القتلة والمجرمون مدخلا إلى أغراضهم الدنيئة مضافا إلى أن العفو لا يجري في حقوق الآخرين . والإمام (عليه السلام) هنا في موقف التأديب الشرعي وتسديد الحق لذوي المقتولين ، إنه موقف أخلاقي منه مع رعاية كل الجوانب الشرعية .

سلطان الدروس المستفادة هنا :

١ ـ ما دام لا يتوجه إلى الفرد ضرر عقلائي لابد له أن ينصح حتى ولو كان لا يرى

مستمعه أهلا للنصيحة . ذلك لأن الانسان مهما كان فإن ضميره يلتقط النصائح ويختزنها للساعة المناسبة .

٢ ـ كذلك لابد من القصاص في حال الإمكان ليقطع دابر الجريمة .

٣ ـ إن اللّه تعالى جعل النجاة في الصدق ، والهلاك في الكذب .

٣ـ في آداب السلوك إلى اللّه:

عن الباقر (عليه السلام) قال : قال علي بن الحسين (عليهما السلام) : مرضت مرضا شديدا ، فقال لي أبي (عليه السلام) : " ما تشتهي " ؟ فقلت : أشتهي أن أكون ممن لا أقترح على اللّه ربي ما يدبره لي . فقال (عليه السلام) لي : " أحسنت ، ضاهيت إبراهيم الخليل صلوات اللّه عليه ، حيث قال جبرئيل (عليه السلام) هل من حاجة ؟ فقال : لا أقترح على ربي ، بل حسبي اللّه ونعم الوكيل " . وهنا يعلمنا الحسين (عليه السلام) في عيادته لابنه علي السجاد أخلاقية العيادة وفن الكلام مع المريض ، وترى ابنه العزيز وربيبه الكامل كيف لا يرغب لنفسه إلا ما رغب له ربه ، ولا يشتهي حتى الاقتراح على اللّه العالم بمصلحته الواقعية ، وهكذا فمن غير الأدب أن يقترح الإنسان على هذا الإله العليم الرحيم شيئا واللّه أعلم بما يصلحه ، ولذلك كان من أدعية العرفاء الصالحين : " اللهم افعل بي ، ما أنت أهله ولا تفعل بي ما أنا أهله " . نرجو أن نتعلم هذه الأخلاق المعنوية ونتأدب بآداب الحسين وأبنائه البررة في السلوك إلى اللّه تعالى ، حيث هذا الأدب ينعكس أيضا على معاشرة الانسان مع الناس .

سلطان الدروس المستفادة هنا :

١ ـ أهمية عيادة المريض ، وما لاختيار الكلمات الصحيحة في الحديث معه من أثر نفسي على شفائه .

٢ـ واجب المؤمن أن يسلم أمره إلى اللّه في كل الحالات ، فذلك ما يبدل حاله إلى أحسن حال بإذن اللّه الذي بيده الخير وهو على كل شئ قدير .

الخاتمة:

توجد عند بعض الناس أفكار خاطئة عن القضايا الأخلاقية يزعمونها صحيحة ، وإذا كان البعض يخشى أن يصححها لهم فان المراجع العضام وأهل البيت ما كانوا ليخشوا من كلمة الحق ، إلا أنهم لم تسمح لهم أخلاقهم الفاضلة أن يقولوا جافة دون رعاية الأدب . وهذا هو الزاوية الهامة في الأخلاق التي ندعو إليها ، أن تقول الحق في ثوبه الأخلاقي . فالأخلاق الإلهية تقضي بالمعروف إلى كل مستحق له . فكم من معروف أسدي إلى غير أهله فجعله من أهله واهتدى . ثم لا ننسى إن اللّه لا يضيع أجر المحسنين . ؟ فلا مجاملة على حساب إبداء الحقيقة وبيان الصحيح في الأمور الهامة . ولابد من احتواء جميع الناس وإرادة الخير لهم دون التمييز القومي والعنصري والفئوي إلا إذا كانت الإمكانات محدودة أو خاصة بهم شرعا ، حيث تجب رعاية الأولويات .

المصادر:

١ـ القران الكريم

٢ـ أخلاق الإمام الحسين (عليه السلام) ،البحراني ، عبد العظيم ،ط الأولى / انتشارات الشريف الرضي للنشر، قم ، ايران، ٢٠٠١.

٣ـ الحسين عليه السلام سماته وسيرته، الحسيني ، محمد رضا ، ترجمة الشامي ، ابن عسكر، دار المعروف للطباعة والنشر.

٤ـ مجلة الاصلاح الحسني، احمد علي الخفاجي، العدد ١٧،٢٠١٢.

٥ـالاخلاق: احمد امين، دار الكتب المصرية، مصر، ١٩٣١ م

٦ـ الاخلاق الاسلامية واسسها: عبد الرحمن حبنكة الميداني، مكتبة الابداع، القاهرة – مصر، ٢٠٠٨ م.

٧ـبحار الانوار: محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، ١٣٠٥ هـ

٨ـحديث ايوب السختياني: ايوب السختياني، مكتبة الابداع، القاهرة ـ مصر، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٩ـديوان احمد شوقي (الشوقيات): احمد شوقي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٩ م.

١٠ـديوان الامام علي بن ابي طالب – عليه السلام:ـ علي بن ابي طالب (ع)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار ابن زيدون، لبنان، (دـ ت).

١١ـديوان حافظ ابراهيم: حافظ ابراهيم، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٩٦ م.

١٢ـديوان معروف الرصافي: معروف عبد الغني الرصافي، شرح وتصحيح: احمد السقا، دار الفكر العربي، بيروت – لبنان،، ط٤، ١٩٥٣ م.

١٣ـالعقد الفريد: احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٣ م.

١٤ـالقبسات: اية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله) مؤسسة الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم الثقافية، قم المقدسة – ايران، ط١، ١٤٣٤ هـ

١٥ـلسان العرب: محمد بن مكرم بن علي – ابو الفضل – جمال الدين ابن منظور الانصاري، دار صادر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٤ هـ

١٦ـمؤلفات جبران خليل جبران (العربية): جبران خليل جبران، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م.

١٧ـ مرأة العقول في شرح اخبار ال الرسول: محمد باقر المجلس، تصحيح وتحقيق: السيد هاشم المحلاتي واخرون، دار الكتب الاسلامية، طهران – ايران، (د ـ ت).

الملخص:

يعد تعليمَ القيم الفاضلة والتي هي أحكام وقواعد وأعراف ربانيَّة المصدر مُتناسِقة وواقعيَّة تُوافِق طبيعة الإنسان وتتوجَّه إلى تنمية الفرد في عقله وبَدَنه وروحه ونفسيَّته، والتربية فيها تكون بالتدرج والاستمرار والثبات بحسَب المرحلة العمريَّة وبحسَب تقبُل تلك التربية، فالرُجوع إلى المرجعيَّة الدينيَّة للاهتمام بالتربية القيمية أمرٌ حضَّتْ عليه المرجعيَّة الدينيَّة جميعها ، وحتى السياسية والقانونية والبيداغوجية عالميًا؛ ففي القرآن الكريم ذكَر اللّه تعالى في مُحكَم كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

المرجعية الدينية هي الامتداد الحقيقي اللازم للإمامة، التي تشكّل بدورها الامتداد الطبيعي للنبوّة في أبعادها المختلفة، وخاصّة في بُعديها العقائدي والسياسي، وقد رسم هذا الامتداد للمرجعية الطريقة التي تنتهجها وتسلكها للتعامل مع جميع الظروف والأوضاع، بما فيها الأوضاع والظروف السياسية، وحسب الشروط والخطوط التي وضعها أهل البيت عليهم السلام، فقد مرَّ أهلُ البيت عليهم السلام بمراحل وأدوار ذات ظروف وعوامل مختلفة، جعلتهم يتصرّفون مع تلك الظروف بما يتلاءم مع شروط كلّ مرحلة ودور. وبما أنّ المرجعية الدينية هي الامتداد الطبيعي للإمامة؛ فإنّ عملها يجب أن يكون في ظلّ ما قام به أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أدوار ومواقف مختلفة. لقد تقلدت المرجعية الدينية وظائف وواجبات عديدة جعلتها تحمل أمانة

الرسالة المحمدية، ومارست الأدوار والمواقف والمراحل ضدّ حركة الانحراف والتدهور مثلما مارسها أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

وإنّ حركة علماء الدين والمراجع على المستويين الفكري والميداني تهدف إلى الهدف ذاته، فهم يسعون جاهدين إلى الحفاظ على حياة الناس أوّلا (القيم العظمى)، فهو هدف كلّ المصلحين، وأوّل أولوياتهم على اختلاف توجهاتهم، وإذا كان الهدف والغاية من كلّ دين أو نظرية إنسانية هي حياة الإنسان، فمعنى ذلك أنّ كلّ ما يوفر للإنسان والإنسانية السلام والحياة الحرّة الكريمة، هو هدف العلماء والفلاسفة والأديان والأفكار. أنّ دورها يعني الإشراف على شؤون المؤمنين الروحية والعبادية والاجتماعية، وهي تكليف وليس تشريف، وهي قبل كلّ شيء مقام ديني اجتماعي وليست مركزا سياسيا؛ وأكدت المرجعية على اهميه النظرية الاسلامية،: (في النظرية الاسلامية واحاديث اهل البيت (عليهم السلام) نجد للاخلاق دورا مهما جدا، وتمثل القاعدة الثانية من حيث الاهمية بعد العقيدة بالنسبة إلى البناء الاجتماعي والى الحركة الاجتماعية) مقسما هذا الركن إلى اربعة اقسام:

الاول: الاخلاق ذات العلاقة بالسلوك الشخصي والسيرة الذاتية للافراد.

الثاني: الاخلاق الاجتماعية وهي: الاخلاق ذات الارتباط بالناس، وكيفية التعامل معهم ومداراتهم، وهو قسم موجود في بحوث وكتب الاخلاق.

الثالث: الاخلاق السياسية: وهي الاخلاق التي لها علاقة بالعمل السياسي والاجتماعي وادارة عملية التغيير، والمواجهة مع قوى الظلم والاستكبار والفساد.

الرابع: اخلاق الصفوة، التي لابد أن تتصف وتتميز بها عندما يتم اعدادها.

نحن من شيئين الروح والبدن ، وإذا كنا نعلم طريقنا إلى غذاء أبداننا فهل نتعلم طريقنا إلى غذاء أرواحنا الأهم أيضا ؟ فما هو هذا الغذاء الأهم ؟ انه الأخلاق الحسنة ،

والتي لا يختلف اثنان في حاجة الإنسان إليها ، حتى ذلك المنسلخ عنها تجده يغضب عليك إن صارحته بحاله ، وربما طالبك بها وهو يعلم نفسه انسلاخها عنها ! فهذا أبسط دليل على حاجة الإنسان الملحة والفطرية إلى الأخلاق الحسنة ، فإذا كانت الأخلاق حاجة ملحة وفطرة ثابتة ، فما هو الذي نفتقر إليه في سبيل العلاج والإنقاذ ؟ نفتقر إلى هداة رسموا لنا جمالية الأخلاق الجذابة إلى الخير كله سواء بكلماتهم الوضاءة أو سيرتهم المضيئة ليكونوا القدوات الصالحة للتأسي ، وهؤلاء الذين بهذا المستوى الرفيع والذين يسدون فقرنا الأخلاقي ويعيدون إلينا توازناتنا الروحية هم النبي وأهل بيته (عليهم السلام) وكل من أخذ من رياضهم الزاهر . وفي سيرة الحسين (عليه السلام) سبط النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأبي الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) إشراقات أخلاقية رائعة ، قد جاء ذكرها في كتب التاريخ والحديث والأخلاق متناثرا .